من نجوم الإسلام

(٤)



أسد الله في أرضه وأسد رسوله

تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

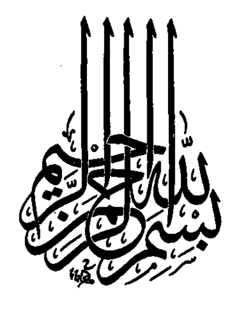
الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

أسد الله في أرضه وأسد رسوله


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثَنا الفتى صادق أمين قال:

كان درس التاريخ اليوم عن ظهور الإسلام، وعن بداية البعثة النبوية، وعن التعذيب الذي كان يلقاه المسلمون الأوّلون على أيدي المشركين من قريش، وتطرّق الحديث إلى إسلام حمزة بن عبد المطلب، ثم إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وكيف أنَّ الإسلام عزّ بإسلامهما.

يبدو أن أستاذ التاريخ كان من المعجبين بشخصية حمزة، ذلك الفارس المغوار، الذي لا يُشَقُّ له غبار ـ كما وصفه الأستاذ ـ صائد الأسود، وأعزُّ فتى في قريش، وقد أفاض الأستاذ في إطراء حمزة، وذكر مناقبه، ووقف طويلاً عند شجاعته، حتى أطلق عليه الرسول القائد ﷺ صفة: أسد الله وأسد رسوله.

والحقّ.. لقد كان الأستاذ موفّقاً في شرحه توفيقاً عجيباً، حتى استأثر أسد الله حمزة بإعجابنا، فأحببناه حبّاً ملك علينا قلوبنا وعقولنا، وجعلنا نلحّ على الأستاذ أن يستمرّ في الحديث عنه، حتى ملأ الحصّة كلَّها..

وعندما عدت إلى البيت، حدّثت أمّي وأبي وأختي صادقة بما سمعته من أستاذ التاريخ عن حمزة، فقال أبي حفظه الله تعالى:

ــ رضي الله عن سيد الشهداء حمزة، فقد كان بطل الأبطال.

وقالت أمّي، حفظها الله تعالى، وهي تلتقط دمعةً فرّتْ من عينها:

ــ كلّما تذكرت سيِّد الشهداء حمزة رضي الله عنه، لا أملك نفسي من البكاء.. أبكي بطولته النادرة، وأبكي للخسارة الكبيرة التي مُني بها المسلمون، كما أُصيبَ بها رسولُ الله ﷺ، في أحرج الأوقات.. في أصعب معركةٍ كادت تودي بالإسلام والمسلمين.

ونظرت إلى أختي صادقة، وإذا عيناها محمرّتان من شدّة الانفعال، فانسحبتُ من الجلسة، وأنا أواري انفعالي، وقلت لهم:

ــ أنا نعسان.. أريد أن أنام..

فاستوقفني أبي وقال:

ــ والغداء؟

ــ سوف أتغدّىٰ فيما بعد.

ثم أسرعتُ نحو غرفتي، وألقيتُ محفظتي على الأرض، ورميتُ نفسي على السرير، ثم أجهشتُ في البكاء، وأنا أستعيد الصورة التي رسمها الأستاذ عن استشهاد أسد الله حمزة.

أذكر كلمات وحشيّ الحبشي قاتل حمزة، بالحرف..

قال وحشيّ:

ـ إنّ حمزةَ قتلَ طُعَيْمَةَ بنَ عَدِيّ بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جُبَيْر بنُ مُطْعِمِ بن عَدِيّ: إن قتلتَ حمزة بعمي (طعيمة) فأنت حرٌّ. فلمّا خرج الناس إلى (أُحُد) لقتال المسلمين، خرجتُ معهم، فلمّا اصطفوا للقتال، خرج سباع فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع، يا ابن أمّ أنمار. أتحادُّ اللَّهَ ورسوله؟ ثم شدَّ عليه فكان كأمس الذاهب، وكَمَنْتُ لحمزة تحت صخرة، فلمّا دنا مني، رميتُه بحربتي، فوقعت في ثُنّته، أي تحت بطنه، حتى خرجتْ بين وَرْكَيْه، فأقبل نحوي، فغُلِب فوقع، وأمهلْتُه حتى إذا مات، جئتُ فأخذتُ حربتي، ثم عدتُ إلى معسكر المشركين، وتنحَّيْتُ عن الناس، فلم يكن لي بشيء حاجة غير حمزة.

وأخرجتُ من جيبي منديلاً نظيفاً، ومسحتُ دموعي التي غسلتْ خدّيّ، وأنا أتذكّر كلمات وحشيّ يصف أسد الله حمزة:

ـ والله إنّي لأنظر إلى حمزة، وهو يهدُّ الناس هدّاً بسيفه، ما يُبقي به شيئاً، مثل الجمل الأورق.

وفيما كانت كلمات وحشيّ تقرع قلبي، تناهت هذه الكلمات إلى أذني.. كان أبي يحدّث أمّي وأختي.. سمعته يقول:

ـ ما كان وحشيٌّ يريد غير الحرية، مهما كان الثمن، حتى لو كان الثمن رأس حمزة، ولهذا لم يقاتل، لأنه ضمن حريّته بقتل حمزة.

وسمعت صادقة تقول:

ـ لا بدّ أن تكون نهاية ذلك العبد الأسود نهاية بشعة.

وسمعتُ أبـي يقول:

ـ لا يا بنتي.. لا تقولي هذا.. فقد أسلم وحشيّ فيما بعد.

فقاطعتْه صادقة بقولها:

ـ وماذا يفيد إسلامه وإسلام الملايين من أمثاله يا أبـي؟

هل كان يساوي قلامة ظفر واحد من أظفار حمزة؟

وسمعت أبـي يردّ عليها بقوله:

ـ لا يا صادقة.. لا تغلطي يا بنتي.. الإسلام يجُبُّ ما كان قبله، ولا يجوز لمسلم أن يحقر مسلماً مهما قلَّ شأنه.

وسمعت أمي تقول:

ـ مع أني أكرهه، ولا أريد أن أسمع اسمه، فإني أعترف، أنّه شفى غليلي بقتل مسيلمة الكذاب.

وسمعت أبـي يقول:

ـ بارك الله فيك يا حاجة.. فقد ذكّرْتِني هذا.. اسمعي يا صادقة حديث وحشي عن إسلامه، وعن قتله مسيلمة الكذاب.

قالت صادقة:

ـ ألا تعفيني يا أبـي من ذكر وحشي؟ أنا أكرهه.. لا أطيق أن أسمع ذكره.

فقال أبـي، وكأنه لم يسمع ما قالته صادقة:

ـ قـال وحشـي: لمّـا فشـا الإسـلام فـي مكـة، خـرجـتُ إلـى الطائف، فلبثتُ فيها زمناً، فلمّا قدِمتْ ثقيف إلى رسول الله ﷺ، خرجتُ معهم، فلمّا رآني رسول الله ﷺ قال:

ـ أنت وحشي؟

قلت: نعم.

قال: أنت قتلت حمزة؟

قلت: قد كان من الأمر ما بلغك.

فقال لي رسول الله ﷺ: فهل تستطيع أن تغيّب وجهك عني؟

فصاحت صادقة:

ـ وأنا مع الرسول.. لا أريد أن أرى وجهه، ولا أن أسمع صوته، ولا أن أعرف شيئاً من أخباره.

فقالت أمي:

ـ اتركي أباك يكمل الخبر يا صادقة..

فقال أبـي:

ـ قال وحشي: فخرجتُ، امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ، ولكيلا أهيج أحزانه، فقد قتلتُ أعزَّ الناس عليه، وأقربهم إليه.. قتلتُ عمَّه حمزة.. فلما قُبض رسول الله ﷺ، وظهر مُسَيْلِمَةُ الكذّاب، قلتُ: لأخرجنَّ إلى مسيلمة، لعلي أقتله، فأكافىء به حمزة.. فخرجت مع

الناس، وصرتُ أتحيّن الفرصة لقتله، والمعركة على أشدِّها في حديقة الموت، وقد كثر القتلى كثرةً هائلة من المشركين ومن المسلمين، وفيما كنت أتفقّدُه، إذا رجلٌ قائم في ثُلْمة جدار، كأنه جملٌ أورق، ثائر الرأس، فعرفته.. عَرَفْتُ أنه مسيلمة، فرميته بحربتي التي قتلتُ بها أسد الله حمزة، فوقعتْ بين ثدييه، وخرجتْ من بين كتفيه، ووثب رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته.

وسكتَ أبـي، فسألت صادقة:

ــ وما يدرينا أنّ وحشياً صادق في كلامه هذا؟

فقال أبـي:

ــ المسلم لا يكذب يا صادقة، والله سبحانه يقول: إنّما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون، ووحشيّ صار مسلماً مؤمناً.. هذه واحدة، والثانية، هي أنّ عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما سمع جارية على ظهر بيت تصيح: واأمير المؤمنين.. قتله العبد الأسود.

الحقّ.. إنَّ رأيـي كرأي أختي صادقة في وحشيّ، وهذا جعلني أضع أصبعيّ في أذنيّ، كيلا أسمع المزيد من حديث وحشيّ، وأنا مُستَلْقٍ على سريري، وقد أسلمتُ نفسي لخيالاتي، وتركتُ روحي تسبح في بحار التاريخ، لتستدعي لي شخصية أرتاح إليها، أحدّثها وتحدّثني، وتزيل عنّي بعض الحزن الذي ألَمَّ بـي من استشهاد البطل العظيم حمزة بن عبد المطلب، عمّ رسول الله، وأخيه من الرضاعة، وصاحبه، وقائد جيشه، وحامي حمى الإسلام والمسلمين.

وفيما أنا كذلك، إذا أنا وأختي صادقة في حضرة رجل كهل، متين، دقيق القسمات، ثاقب النظرات، مهيب الطلعة. . ولولا أن فمه افترَّ عن ابتسامة لطيفة، لولّيتُ منه فراراً. . ولكنَّ ابتسامته طمأنتني، وشجّعتني للسلام عليه، فقلت:

ــ السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا عمّي.

فأشرق محياه، وهو يردُّ تحيتي بأحسن منها:

ــ وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته ورضوانه يا أولادي.

التفتت إليّ صادقة، كأنّها تحثّني على معرفة الرجل، فاستجبت لها، وقلت:

ــ أنا صادق، وأختي هذه اسمها صادقة، فمن أنت يا عمّي؟

فاتّسعت ابتسامته، حتى غطّتْ وجهه بهالة أجمل من هالة القمر وقال:

ــ أنا حمزة.

فقلت مبهوتاً:

ــ حمزة؟ حمزة سيد الشهداء؟

فهزّ رأسه: أنْ نعم. فقلتُ متهلِّلَ الوجه، متطلِّقَ الأسارير:

ــ مرحباً بك يا سيِّد الشهداء، يا عمَّ رسول الله، ويا أسد الله في أرضه.

وأقبلتْ صادقة، وهي تمسح دموع الفرح والسعادة بلقاء هذا

الرجل العظيم، وقالت بصوت متهدِّج:

ــ أهلاً بجدّنا البطل المغوار، بأعزِّ رجال قريش، وأشجعِ شُجعانها..

فقال الرجل المهيب:

ــ أهلاً بكم يا أولادي.

فقلت في صوت حزين:

ــ نحن، اليوم، في محنة وابتلاء يا سيِّدي، كتلك المحنة التي عشتموها في أكناف قريش، قبل أن يُؤْذَنَ لكم بالقتال.

فاتخذ الصحابيُّ الفارس هيئة المقطِّب، ثم قال:

ــ ولكنّ الإذن بالقتال نزل، فمن لم يغزُ، أو يحدّث نفسه بالغزو، مات ميتة جاهلية.

فقالت صادقة بصوت يخالطه البكاء:

ــ نحن اليوم ندافع عن أنفسنا يا سيِّدي، ويسمّوننا إرهابيين.. يتهموننا بالإرهاب والتخريب، ويحاربوننا في كل مكان، لا لذنب اقترفناه، إلاَّ أننا نقول: ربُّنا الله، ونرفض الطغيان والطواغيت المتجبّرين في الأرض..

وقلتُ أنا، متابعاً أختي، وباللغة التي كانوا يتكلّمونها في صدر الإسلام:

ــ إنهم يرموننا عن قوس واحدة يا سيِّدي حمزة.

فقال الأسد الهصور:

ـ ما دمتم على الحقّ، فاصبروا وصابروا، ورابطوا وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، وحذارِ أنْ تُغْزَوا في عُقْر داركم، فتُذَلُّوا.

قالت صادقة:

ـ غُزينا في عُقْر دارنا، واحتلَّ الغزاةُ أرضنا، وطردونا من ديارنا، ونحن نعيش في شتات وغربة وتمزّق، يا سيِّدي الشهيد حمزة.

فقال حمزة:

ـ نحن خرجْنا مع رسول الله ﷺ من ديارنا، وهاجر من هاجر منّا إلى الحبشة، ثم هاجرنا جميعاً إلى المدينة المنورة، وتركنا للمشركين أموالنا وما ملكتْ أيماننا، ولكنّ هجرتنا كانت ضمن خُطّة محكمة، من أجل التمكين لهذا الدين في المدينة، لنشر الإسلام، ولتعبئة المجاهدين، ثم العودة إلى مكة فاتحين.. نحن لم نهرب حتى تهربوا.

قالت صادقة:

ـ هم أرغمونا على الخروج.. لم نخرج بمحض إرادتنا.

فقال حمزة محتدّاً:

ـ خطأ.. خطأ جسيم ارتكبتموه بخروجكم.. ما كان ينبغي لكم أن تتركوا بلادكم لأعدائكم وتخرجوا.. عودوا إلى بلادكم..

موتوا على أرضكم.. حذّروا من بقي منكم داخل البلاد، حذّروهم من الخروج، مهما تكن التكاليف باهظة.. مهما تشتدُّ المحنة ويعظم البلاء.. الأرض أرضكم، وحرامٌ أنْ تفرّوا منها، غير منحازين إلى فئة، أو متحرِّفين لقتال، حسب خُطّة مرسومة.

فقلت:

ــ ولهذا فرحنا بلقائك يا أسد الله وأسد رسوله، لتشدّ من عزائمنا، وتبصّرنا بما يجب عمله.

وأقبلتْ صادقة على الضيف العزيز، بوجهها البشوش، وقالت:

ــ هل تقدّم لمحبّيك، وعشّاق بطولاتك من حفدتك، شيئاً عن حياتك الحافلة بجلائل الأعمال؟

قال حمزة:

ــ اسمي حمزة بن عبد المطلب، كنيتي: أبو عُمارة، وأبو يعلىٰ، من بني هاشم، من قريش، وأمّي هالة بنت وهيب، وهي بنت عمّ آمنة بنت وهب، أمّ النبيّ الكريم.

ــ وأنت من صناديد قريش، ومن سادتها، في الجاهلية والإسلام.. ثم ماذا يا سيِّدي حمزة؟

ــ وُلدتُ في مكة المكرّمة، قبل عام الفيل بسنتين.

ــ يعني.. أنت أكبر سنّاً من الرسول القائد بسنتين.

ــ أجل.. وأنا عمّ الرسول، وأخوه من الرضاعة.. أرضعَتْنا ثُوَيْبَةُ مولاة أبي لهب. أرضعتني، ثم أرضعتْ رسولَ الله ﷺ.

قلت له:

ـ نعرف أنَّ أباك عبد المطلب، يا سيِّدي، كان سيِّد قريش، حتى وفاته، فهل تحدّثنا عنه؟

أجاب حمزة:

ـ كان أبـي، وهو جدّ الرسول ﷺ، قد وَلِيَ السِّقاية والرِّفادة بعد عمّه المطلب.

فقاطعته صادقة بسؤالها:

ـ عفواً سيِّدي.. ما معنى السِّقاية؟

ـ السّقاية: هي سَقْيُ الحجاج إلى بيت الله الحرام.. كان جدُّ الرسول عبد المطلب ينبذ الزبيب بالماء، ثم يقدّمه للحجيج.

ـ والرِّفادة؟

ـ الرّفادة: ما كانت تخرجه قريش، في الجاهلية، من أموالها، تشتري به طعاماً وشراباً لفقراء الحجاج في موسم الحج.. وكان عبد المطلب هو الذي يقوم بها.

ـ ما شاء الله.. ما شاء الله..

قال حمزة بن عبد المطلب، متابعاً حديثه:

ـ وبهذا وذاك وبغيرهما، بلغ عبد المطلب من الشرف في قومه، ما لم يبلغه أحدٌ من آبائه من قبله، فأحبّه قومه، وعظّموه، وعظُم خطره فيهم، وكان من أعماله الخالدة الباقية على الدهر، حفرُه بئرَ زَمْزَم.

ـ هل تحدّثنا بشيء عن شبابك يا سيدي؟ أي قبل إسلامك؟

فابتسم حمزة وهو يقول:

ـ وماذا يهمّكم من أمر جاهليتي؟.. ولكن.. ليس لي أن أردّ لكما طلباً.. أبرز ما يمكن ذكره لكما في تلك المرحلة أمور:

أولها: أني حضرت مع إخوتي حرب الفجار الثاني، وكانت بعد عام الفيل بعشرين سنة، بعد موت أبي عبد المطلب باثنتي عشرة سنة.

ـ ولماذا سُمّيت حرب الفِجار يا سيِّدي؟

ـ لأنّ كنانة وقيساً استحلّتا المحارم.

ـ وهل حضره الرسول القائد يا سيِّدي؟

ـ أجل.. حضره مع أعمامه: الزبير بن عبد المطلب، وأبو طالب وحمزة والعباس. وكان عمر الرسول عشرين عاماً.

وكانت حرب الفجار أول تدريب عسكري عمليّ لي على القتال.

ـ ثم ماذا يا سيّدي؟

ـ ثم كانت هوايتي بالصيد.. كنت أمضي الأيام والليالي، أجوب صحراء الجزيرة العربية وراء صيد ما تقع عليه عيني، من طيور وغزلان وسباع..

ـ ثم ماذا يا سيدي حمزة؟

ـ ثم.. هناك أمرٌ أعتزُّ به، وهو أنني أسهمت في زواج ابن أخي محمد ﷺ، من السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

وقالت صادقة:

ـ نريد أن تروي لنا قصة إسلامك بالتفصيل يا جدّي العزيز.. متى أسلمت؟ وكيف؟ ولماذا؟.

فظهر النشاط عليه، وهو يعتدل في جلسته، ثم قال:

ـ لمّا ظهر الإسلام، ودعاني ابن أخي محمد ﷺ إليه، ترددتُ كما تردّد غيري من رجالات قريش، وفرسانها، وحكمائها، ووجهائها، غير أني كنت أحبّ ابن أخي، وأقدّره، وأعظّمه، لما أعرف من صدقه وأمانته وشجاعته وأريحيته، وكنت أظنُّ أنه سيكون له شأن، وأيّ شأن، ولهذا كنت أدافع عنه، ولا أرضى لأحد أن يهينه أو يشتمه.

وذات يوم، كنت عائداً من صيدي، متوشّحاً قوسي، وكان من عادتي في مثل هذه الحال، أن أعمد إلى الكعبة المعظّمة، فأطوف حولها، ثم أقف على أندية قريش، أسلّم على رجالها، وأتحدّث معهم.. كنت أفعل هذا قبل أن أعود إلى بيتي..

قلت لكم.. فيما كنت عائداً من الصيد، إذا مولاةٌ لعبد الله بن جُدْعان تقول لي:

ـ يا أبا عُمارة.. لو رأيتَ ما لقيَ ابن أخيك محمد، من أبي الحكم بن هشام.

فسألتها: ويحكِ.. ماذا كان من أمرهما؟

قالت: مرَّ أبو الحكم بابن أخيك وهو جالس عند الصفا، فآذاه وسبّه، ثم انصرف عنه، ولم يكلّمه محمد.

فاجتاحني الغضب، فخرجتُ مسرعاً نحو الكعبة، لا ألوي على أحد، حتى دخلت المسجد، فرأيت أبا جهل جالساً في قومه، فأقبلتُ نحوه، وضربت رأسه بقوسي، فشججْتُه شجَّةً مُنْكَرة، وقلت له: أتشتمه ـ يا أبا جهل ـ وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فارددْ عليّ إن استطعت.

فهتفنا: أختي وأنا: الله أكبر.. الله أكبر.

وتابع حمزة يقول:

ـ فقام رجال من بني مخزوم، قبيلة أبي جهل، إليَّ، لينصروه، فقال لهم أبو جهل:

ـ دعوا أبا عُمارة، فإني سببتُ ابن أخيه سبّاً قبيحاً.

فعلّقت صادقة:

ـ خاف الجبان.

وقلت أنا:

ـ وحُقَّ له أن يخاف من صائد الأسود.

وقالت صادقة:

ـ لا بدَّ أنَّ الرسول القائد فرح بإسلامك هو والمسلمون يا سيّدي.

فقلت:

ــ ولا بدَّ أنّ الإسلام والمسلمين قد عزُّوا بإسلامك، لأنك سوف تدافع عنهم، وعن رسول الله بصورة خاصة..

فقال حمزة:

ــ قد كان هذا بفضل الله تعالى، فقد كفَّ طواغيت قريش عن بعض ما كانوا يؤذون به رسول الله ﷺ، وقالوا: اليوم عزّ محمد، وإن حمزة سيمنعه.

ــ متى أسلمتَ يا سيِّدي؟

ــ في السنة الثانية من بعثة النبـيّ ﷺ.

وقالت صادقة:

ــ ألا تحدّثنا عن مشاعر المسلمين تجاهك يا سيدي؟

ــ كانت مشاعرهم نبيلة.. فرحوا وفرح النبـيُّ بإسلامي، وهلّل المستضعفون وكبّروا، وظنّوا أنني سوف أتصدّى لمشركي قريش، وأمنعهم من إيذائهم.

ــ ثم ماذا يا سيِّدي حمزة؟

ــ ثم مضيت أدعو إلى الإسلام، وأتحدّى صناديد المشركين في أنديتهم، وهم يتحاشَوْنني، لا يريدون الاصطدام بـي.. ولا أكتمكم.. فقد ازددت بإسلامي وإيماني عزّاً وشجاعة، فقد بدّلني الإسلام، وجعل مني رجلاً آخر.

وخطر على بالي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكيف عزّ الإسلام به، فسألت سيِّدي حمزة:

ــ وماذا عن إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟

ــ طبعاً فرحنا به فرحاً عظيماً.. أم أنك تريدني أنْ أحدّثكم عن لحظة إسلامه؟

ــ نعم يا سيّدي.

فأغمض حمزة عينيه، وزوىٰ بين حاجبيه، ثم قال:

ــ كنّا في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وإذا الباب يُقرع بعنف، فقام رجلٌ ينظر من خلل الباب، فرأى عمرَ متوشّحاً سيفه، فأخبر رسولَ الله ﷺ، فاستجمع القوم. فقلت لهم: ما لكم؟

قالوا: عمر.

قلت: وليكن عمر.. افتحوا له الباب، فإن كان جاء يريد خيراً، بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرّاً، قتلناه بسيفه.

ورسول الله ﷺ داخلٌ يوحىٰ إليه. فخرج إلى عمر، حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، ثم جبذه جبذة شديدة فقال: أما أنت بمنتهٍ يا عمر، حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة؟ اللهم هذا عمر بن الخطاب، اللهمّ أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب..

فقال عمر: أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أنَّك رسول الله. فكبَّر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد.

فهتفنا نحن: الله أكبر.. الله أكبر.

استرقتُ النظر إلى البطل العظيم حمزة، وإذا هو يتأملني، فاضطربتُ، ثم تماسكتُ وقلت له:

ـ ما زلنا في مكة المكرمة يا سيِّدي. فهل عندك ما تضيفه من أحداث جسام، قبل أن نغادرها إلى المدينة المنوّرة؟

وقبل أن يجيب، قالت صادقة:

ـ أريد أن أسمع منك، يا جدّي الغالي، ما كان من شِعْب أبـي طالب.

لاحظتُ أنّ الوجه المشرق قد اربدَّ وعبس في حزن، فقلت له:

ـ إذا كان حديث الشِعْب يحزنك يا سيِّدي، فتجاوزه إلى غيره.

فانفرجت أسارير حمزة وقال:

ـ كلُّ شيء يهون في سبيل الله يا أولادي.. وسوف أحدّثكم عمّا كان من أمر شِعْب أبـي طالب..

اجتمع المشركون، وتحالفوا على بني هاشم وبني المطلب، أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلّموهم، حتى يسلّموا إليهم رسول الله ﷺ ليقتلوه.

فسألت صادقة:

ـ هل أسلم بنو هاشم، وبنو المطلب، حتى قاطعوهم هذه المقاطعة الظالمة؟

أجاب الصحابيُّ الجليل حمزة:

ـ لا يا ابنتي.. أسلم بعضهم، وبقي بعض آخر على الشرك، مثل أخي أبي طالب مثلاً.

ـ إذن.. لماذا قاطعوهم جميعاً، ولم يقاطعوا المسلمين منهم خاصة؟

أجاب حمزة رضي الله عنه:

ـ لأنّ بني هاشم، وبني المطلب، تواثقوا كلُّهم، مسلمهم وكافرهم، على حياطة محمد ﷺ، ومنعه، فحار المشركون فيما يعملون، فإذا قتلوا محمداً، سال وادي مكة بدمائهم، وربّما يُستأصلون عن بكرة أبيهم، فاجتمعوا، وتآمروا، وتواثقوا على ما ذكرته لكم، وكتبوا بذلك صحيفة، فيها عهود ومواثيق، أنْ لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رحمة، حتى يسلموهم محمداً، ليقتلوه.

ـ أعوذ بالله، ما أقسى قلوب المشركين.

ـ وعلَّقوا الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى شِعْب أبي طالب، إلاَّ أبا لهب، وحُبسوا في ذلك الشِعْب.

ـ متى كان هذا يا سيِّدي؟

ـ ليلة هلال المحرم، سنة سبع للبعثة النبوية.

ـ وكم امتدَّ هذا الحصار الرهيب؟

ـ ثلاثة أعوام.

فصاحت صادقة في دهشة:

ـ ثلاثة أعوام؟

ـ أجل يا ابنتي.. ثلاثة أعوام كاملة، قطعوا عنّا الميرة والمادة، فلم يتركوا طعاماً أو بيعاً يدخل مكة، إلاَّ بادروا إليه واشتروه، حتى بلغ منّا الجهد مبلغاً عظيماً.. كنا نأكل الأوراق والحشائش والجلود، وكانت أصوات نسائنا وصبياننا تُسمع من وراء الشِعْب، وهم يتضاغَوْنَ من الجوع.

ـ ما كان يصل إليكم شيء؟

ـ إلاَّ في السرّ.. وكنّا لا نخرج من الشِعْب لشراء حوائجنا، إلاَّ في الأشهر الحرم..

ـ شيء فظيع.. قلوب أقسىٰ من الحجر الصوّان.

وسألت صادقة:

ـ أليس لك في ذلك الحصار ذكرى تحرص عليها يا جدّي؟

ـ بلى يا ابنتي..

كان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ من القتل غيلة، فكان إذا نام الناس، دعا رسولَ الله فأنامه في موضعه، وأمر بعض أبنائه

أو إخوته لينام في فراش رسول الله، خوفاً من اغتيال رسول الله والناس نيام.

ـ الله أكبر.. ما أروع هذا الرجل.

ـ لو أنه أسلم.

ـ ثم ماذا يا سيِّدي بشأن هذا الحصار؟

فتنهَّدَ الفارس تنهّدة من جوف يحترق غيظاً، ثم قال:

ـ بعد ثلاثة أعوام، قام ذوو الشهامة والمروءة من كفار قريش، واتفقوا على نقض الصحيفة الظالمة، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا أحدهم، وهو زهير بن أبـي أمية المخزومي وعليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس، فقال:

ـ يا أهل مكة! أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكىٰ، لا يباع ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة الظالمة القاطعة.

فقام أبو جهل وقال له: كذبت. والله لا تُشَقّ.

فقال له زَمْعةُ بن الأسود: أنت والله أكذب.. ما رضينا كتابتها حيث كُتبت.

قال أبو البختري: صدق زمعة. لا نرضى ما كُتب فيها، ولا نُقرُّ به.

وقال المطعم بن عديّ: صدقتما وكذب من قال غير ذلك. نبرأ إلى الله منها، ومما كُتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمرٌ دُبِّر بليل، تُشووِرَ فيه بغير هذا المكان.

وكان أبو طالب جالساً في ناحية المسجد، فقام وقال لهم:

ـ يا قوم. إنّ ابن أخي يقول: إنّ الله قد أرسل الأرَضَة على الصحيفة، فأكلتْ جميع ما فيها من جوىً وقطيعة وظلم، إلاَّ ذكر الله عزّ وجلّ. فإن كان كاذباً، خلَّيْنا بينكم وبينه، وإن كان صادقاً، رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا.

قالوا: قد أنصفت.

ثم قام المطعم بن عديّ إلى الصحيفة ليشقَّها، فوجد الأرضة قد أكلَتْها، إلاَّ (باسمك اللهمّ)، وما كان فيها من اسم الله، فإنها لم تأكله.

فصحتُ: الله أكبر.

وسألت صادقة: ألم يُسْلموا ويصدّقوا رسول الله بعد هذه الآية؟

فأجاب حمزة رضي الله عنه:

ـ إنهم، يا ابنتي، كما أخبر الله عنهم:

﴿وإنْ يَرَوْا آية يُعْرِضوا ويقولوا سحرٌ مستمرّ﴾.

تنفَّسْنا الصُّعَداءَ جميعاً، فقد كان حادث الشِعْب رهيباً رعيباً.. كنتُ أظنّه ثلاثة أيام، أو ثلاثة شهور، وإذا هو ثلاثة أعوام، ثم خطر لي خاطر فقلت لسيِّدي حمزة:

ـ عفواً سيِّدي. . سؤال أخير، أو استفهام عن الشِعْب.

ـ تفضَّلْ يا بني. . سلْ ما بدا لك.

ـ هل توقفت الدعوة إلى الإسلام، خلال مدة الحصار في الشعب؟

ـ لا. . لم تتوقف. . كان رسول الله ﷺ يخرج في المواسم، وكنّا نخرج معه، وكان يلقىٰ الحجيج القادمين، ويدعوهم إلى الإسلام، وكنّا نفعل مثل ما يفعل، عليه السلام، فالدعوة إلى الله، لا يجوز أن تتوقف، مهما تكن الظروف، قاسيةً أو ليِّنة.

قلت، والحزن والألم باديان على وجهي، ويحزّان في قلبي:

ـ متى هاجرتَ إلى المدينة المنوّرة يا سيّدي؟

ـ قبيل هجرة النبيّ ﷺ.

فقالت صادقة كالمحدّثة نفسها:

ـ هاجرتَ مع من هاجر من المسلمين إلى المدينة المنوّرة، وتركت أموالك وأملاكك في مكة، لتذوق هناك شظف العيش وقسوة الحياة.

فقال حمزة الذي كان يصغي إلى صادقة:

ـ غير أني صبرت على الفقر والعوز، ما دام ذلك في سبيل الله. حتى كان يومٌ، ضاقت فيه نفسي مما ألقىٰ من ضيق ذات اليد، فقصدتُ رسولَ الله ﷺ، أسأله أن يهيّىء لي عملاً أكسب منه.

ــ فماذا كان جواب الرسول القائد يا سيِّدي؟

قال أسد الله حمزة والفرحة في التماع عينيه تغزو الناظر إليه:

ــ كان جوابه من أعظم البُشْرَيَات في حياتي..

لقد بشّرني بنزول الإذن بالقتال، من فوق سبع سماوات.. وقرأ عليّ قول الله تعالى:

﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم. أُذِنَ للذين يقاتلُون بأنّهم ظُلموا، وإنَّ الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلاَّ أن يقولوا: ربُّنا الله. ولولا دَفْعُ اللَّهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لهُدِّمتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكَرُ فيها اسمُ الله كثيراً. ولينصرَنَّ اللَّهُ مَنْ ينصره، إنّ الله لقويٌّ عزيز﴾.

قالت صادقة:

ــ وطِرْتَ من الفرح يا سيِّدي!.

ــ أجل يا ابنتي.. وفرح سائر المهاجرين، وأخذ رسول الله يتأهّب للمواجهات الدامية مع طواغيت قريش.

ــ وبعدها يا سيِّدي؟

ــ بعدها عَقَدَ لي رسول الله ﷺ أول لواء، وأرسلني على رأس سريّة من ثلاثين مجاهداً، فاعترضْنا قافلةً لقريش، يقودها أبو جهل، ومعه ثلاث مئة راكب.

ــ يعني عشرة أضعاف عددكم.

ـ أجل.. كنا ثلاثين، وكانوا ثلاث مئة.. واشرأبّت أعناقنا للقتال، ولكن إرادة الله قضت بغير ذلك.

ـ كيف؟

ـ لقد حاجز بيننا مجدي بن عمرو الجُهَنيّ، فلم يقع قتال.

فسألت عن مجدي هذا، فأخبرنا حمزة بأنه كان حليفاً لنا وللمشركين معاً، فلم يسعنا إلاَّ الاستجابة لطلبه.

ولمّا قرأتُ الحزن في كلمات حمزة، قلت له:

ـ ولكنكم أثّرتم على معنويات قريش، عندما تعرّضتم لقافلتها، وفيها عشرة أضعاف عددكم، هذه واحدة، والثانية: أنكم أخفتموهم على تجارتهم.. بثثتم الرعب في قلوبهم، والخوف على قوافلهم التجارية المتجهة إلى الشام، والعائدة منها، وروح قريش في تجارتها.

فقال حمزة، وقد زال عنه حزنه واكتئابه:

ـ صدقتَ يا بنيّ.. كلامك سليم جداً.

واستفسرت صادقة عن زمان هذه السريّة ومكانها، فقال:

ـ كانت في شهر رمضان، على رأس سبعة أشهر من الهجرة النبوية، وأمّا مكانها، فكانت قافلة قريش عائدة من الشام إلى مكة، وهي محمّلة بالبضائع، وقد سلكتْ سِيْف البحر من ناحية (العِيْص).

فسألتُ عن معنى سِيْف البحر، فأخبرنا بأنه ساحل البحر، ثم قلت:

ـ ألا تحدّثنا، يا سيِّدي، عن دورك في معركة بدر؟

فقال حمزة:

ـ قبل غزوة بدر، شاركت في غزوة الأبواء، وكانت في شهر صفر من السنة الثانية للهجرة.

ـ من كان يقود هذه الغزوة يا سيِّدي؟

ـ الرسول بنفسه.. قادها رسول الله ﷺ، وكان معه سبعون مجاهداً من المهاجرين، وكنتُ حامل لوائه الشريف.

فاستفهمت عن لون ذلك اللواء، فأعلمنا بأنه كان أبيض اللون، وكذلك كان لون اللواء الذي عقده له الرسول القائد في أول سرية بعثها بقيادة حمزة.. كان لونه أبيض.

وسألناه عن سبب هذه الغزوة فقال:

ـ لاعتراض قافلة قريش.

ـ وهل حصل قتال؟

ـ لا.. لم يحصل، مع شديد الأسف.. وعُدْنا إلى المدينة بعد غياب خمس عشرة ليلة عنها.

وكذلك كنتُ حامل لواء الرسول في غزوة ذي العشيرة، وكان سببها اعتراض قافلة أخرى لقريش.

قالت صادقة:

ـ معنى هذا، أنك كنتَ مع الرسول القائد في سائر غزواته؟

ـ وبهذا نلتُ شرف القتال تحت لوائه الشريف.

ـ كما نلتَ شرف صحبته، وشرف الدفاع عنه في مكة، وفي المدينة، وأخيراً شرف الشهادة، بل شرف سيّد الشهداء إلى يوم الدين.

نظرتْ إليّ أختي صادقةُ نظرةً ذات معنى، كأنها تقول لي: دع الحديث للضيف العظيم، فهربتُ بعينيّ من عينيها، وتوجّهت إلى سيِّدي حمزة أسأله أن يحدّثنا عن دوره في غزوة بدر الكبرى، فقال:

ـ حبّاً وكرامة.. سوف أحدّثكم عن غزوة بدر، وعن دوري فيها إن شاء الله، ولكني أريد أن أسمعكم شيئاً من شعري في تلك السريّة التي طالما انتظرتُها، لأقاتل أعداء الله.. ولكن.. شاءت إرادة الله غير ذلك.. وفيما نحن عائدون إلى المدينة المنورة، جاشت نفسي ببعض المعاني الحماسيّة، فضمَّنْتُها في هذه الأبيات:

وتضاحك أسد الله وأسد رسوله وهو يقول:

ـ أنا لست بشاعر، ومع ذلك شعرتُ فقلت:

بأمر رسول الله أوّلُ خافقٍ — عليه لواءٌ، لم يكن لاح من قَبْلي

هذا لأن اللواء الذي عقده لي رسول الله، كان أول لواء عقده ﷺ، كما قلت لكم قبل قليل.

لواءٌ لدين النصر من ذي كرامة — إلهٌ عزيزٌ، فعلُه أفضلُ الفعلِ
فلمّا تراءَيْنا أناخوا فعقَّلوا — مطايا، وعقَّلْنا مدى غرض النَّبْلِ
فقلنا لهم: حبلُ الإله نصيرُنا — وما لكمو إلاَّ الضلالةُ من حبلِ

فثـار أبـو جهـل هنـالـك بـاغيـاً فخاب، وردَّ اللَّهُ كيدَ أبـي جهلِ
ومـا نحـن إلاَّ فـي ثـلاثيـن راكبـاً وهـم مئتـان بعـد واحـدةٍ فضْـلِ
فيـا آلَ لـؤيّ لا تطيعـوا غُـواتكـم وفِيْئوا إلى الإِسلام والمَنْهَجِ السَّهْلِ
فـإنـي أخـاف أن يُصَـبَّ عليكمـو عذابٌ، فتدعوا بالندامة والثُّكْلِ

يعني. . هذا ما جادت به القريحة.

فقالت صادقة:

ــ جميل. . جميل جداً. . شعر عفويّ يؤرّخ لأول لقاء بين المسلمين وبين المشركين في ميدان القتال، فيه عفوية، وفيه حماسة، وفيه دعوة إلى الله.

فعقَّب حمزة:

ــ ولكنّه لقاء كريه. . كريهٌ جداً أن ترى عدوَّ الله أبا جهل، ثم لا تفصل رأسه عن جسده.

فقلت:

ــ لا تحزن يا سيّدي، فلكلّ أجلٍ كتاب، وقد أخزاه الله في بدر وأهلكه. فهَمْهَمَ حمزة كالمحدّث نفسه في أسى:

ــ أجلْ. . لكلّ أجلٍ كتاب. .

فقالت صادقة:

ــ هل نأتي إلى غزوة بدر يا جدّي الحبيب؟

ــ نأتي بعون الله. .

قالها أسد الله حمزة، كالذّاهل، فقلت أحمّسه:

ــ تحدّثنا كتب التاريخ، أنك لم تقاتل في غزوة بدر أيَّ قتال، أو كأيّ مقاتل، بل كنت في غاية الاستبسال والاستقتال، فقتلت عدداً كبيراً من مشركي قريش، من شجعانهم وصناديدهم، ومزّقتَ صفوفهم، وطاردتَ فلولهم، فكنتَ بحقّ، بطل (بدر) بلا منازع..

كنتُ ألاحظ وقع كلماتي على هذا الأسد البشريّ، الذي كان يزداد بِشْراً وتألّقاً مع كلّ كلمة أقولها، فلمّا وقفت عن الكلام، اعتدل في جلسته التي أطلناها عليه، وقال:

ــ تعلمون. يا أولادي، أنّنا عندما هاجرنا إلى المدينة، تركْنا في مكة المكرمة العزيزة، كلَّ ما نملك من مال وعقار وأنعام، ونزلْنا ضيوفاً عند إخواننا الأنصار، من الأوس والخزرج، فقدَّم لنا أولئك الكرام كلَّ ما في وسعهم تقديمه.. شاطرونا أموالهم، وشاركونا في سكناهم، حتى بلغت الأريحيّة ببعضهم، أن يعرض على أخيه المهاجر، أن يطلّق له إحدى زوجتيه ليتزوّجها.

ــ الله أكبر..

ــ ما هذا الإيثار العظيم من أولئك الكرام؟

ــ هؤلاء هم الذين يؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خَصَاصة.

فتابع أسد الله يقول:

ــ وعندما نزلت آية القتال، بادرنا إلى السلاح، وصار

رسول الله ﷺ يشكّل السرايا، للتعرّض إلى قوافل قريش التي سلبتْنا أموالنا ودورنا وأرضنا.. نريد أن نكسر شوكتها، كما نريد أن نستخلص بعض أموالنا التي صادروها..

ـ هذا من حقّكم، ولا يستطيع أحدٌ أن يجادل فيه.

ـ وذات يوم، علم رسول الله ﷺ، أنّ هناك قافلة كبيرة لقريش، يقودها أبو سفيان إلى الشام.. وحاول الرسول اللحاق بها، كما قدّمتُ في غزوة ذي العشيرة، ولكنها فاتتنا، ولم نتمكن منها.

ولمّا اقترب موعد عودتها من الشام إلى مكة، بعث رسول الله طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد إلى الشمال، ليتسقّطا أخبارها، فوصلا إلى الحوراء، ومكثا هناك، حتى مرَّ بهما أبو سفيان بالقافلة، فأسرعا إلى المدينة، وأخبرا رسولَ الله ﷺ، وقالا له:

ـ إنّ القافلة كبيرة، مؤلفة من ألف بعير، مُوْقَرة بالأموال الطائلة. قدّرها بعضهم بما لا يقلّ عن خمسين ألفَ دينار ذهبيّ، وليس معها من الحرس أكثر من أربعين رجلاً.

طبعاً كانت هذه القافلة هدفاً ثميناً لا يجوز تفويته، وبالاستيلاء عليها، نوجّه ضربة قاصمة لقريش.

لذلك أعلن هذا رسول الله، وقال للمسلمين:

«هذه عِيْرُ قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله أن يَنْفِلَكموها».

اكتفى الرسول ﷺ بهذا، ولم يعزم على أحد بالخروج، بل ترك

الأمر لرغبة كلّ فرد من المسلمين، فمن شاء خرج، ومن شاء لم يخرج، لأنّ الرسول لم يكن يتوقع حرباً مع جيش قريش، بل إن حرس القافلة وقائدها، سوف يستسلمون عندما يرون رسول الله ومن معه من المقاتلين.. ولهذا تخلّف عن هذه الغزوة كثير من كرام الصحابة، ولم ينكر أحدٌ على أحدٍ قعودَه عن الخروج مع الرسول.

ــ كم كان عددكم يا سيِّدي؟

ــ خرج مع الرسول ثلاث مئة وأربعة عشر مقاتلاً.

فقلت:

ــ معنى هذا، أنكم لم تستعدّوا الاستعداد الكافي لخوض المعركة؟

فقال أسد الله حمزة:

ــ ألم أقل لكم: لم نكن نتوقع حرباً.. ولهذا لم يكن معنا سوى فرسين، فرس للزبير بن العوّام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي، وكان معنا سبعون بعيراً، وكان يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد. بل كان رسول الله ﷺ، وعليّ، ومِرْثَدُ بنُ أبي مِرْثَدٍ الغَنَوِيُّ، يعتقبون بعيراً واحداً.

ــ يا لطيف..

ــ ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير رضي الله عنه، وكان لواء أبيض، وقسم الرسول الجيش إلى كتيبتين: كتيبة المهاجرين، وأعطى علمها عليَّ بن أبي طالب، وكتيبة الأنصار، وأعطى علمها سعد بن

معاذ. وجعل على قيادة الميمنة: الزبير بن العوام، وعلى قيادة الميسرة: المقداد ــ وكانا الفارسين الوحيدين في الجيش ــ.

فسألت:

ــ وأنت يا سيِّدي كنتَ القائدَ العام؟

ــ بل كانت القيادة للرسول ﷺ. .

وعَرَفَ أبو سفيان، قائد القافلة، أننا خرجْنا له، فغيَّرَ طريقَ سيره، وأرسل إلى مكة مستنجداً، ولبّتْ قريش نداء أبي سفيان، وجاءت في تسع مئة وخمسين مقاتلاً، بقيادة أبي جهل.

ــ لعنه الله.

ــ ولمّا علم الرسول بنجاة القافلة، وبخروج قريش للقتال، استشار أصحابه، فأجمعوا أمرهم على القتال.

ــ مع أنكم لم تخرجوا للقتال.

ــ ولذلك استشار الرسول أصحابه. .

كان مع جيش المشركين مئة فرس، وست مئة درع، وجمال كثيرة، ونحن كما وصفتُ لكم، ولكنّ الله معنا، وهو حَسْبُنا.

ــ نعم يا سيِّدي. . تابع أرجوك.

ــ في اختصار شديد أقول لكم:

اصطفّ الجيشان للقتال، وكنّا قد عَسْكَرْنا في أدنى ماء من المشركين، وبدأ الهجوم من عندهم، فقد هجم علينا واحد من أشجع

شجعانهم، ومن أشرسهم، وأسوأهم خُلُقاً، وهو: الأسود بن عبد الأسد.. هجم على الحوض الذي كنّا بنيْناه قائلاً:

«أعاهد الله، لأشربنَّ من حوضهم، أو لأهدمنَّه، أو لأموتنَّ دونه». فتصدَّيْتُ له، فضربته بسيفي ضربة أطارت نصف ساقه، ثم قتلتُه.

فهتفت: بارك الله فيك يا سيّدي حمزة.

وتابع أسد الله يروي لنا دوره في هذه المعركة الفاصلة:

ـ فبرز من المشركين ثلاثة من صناديدهم، وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، فلم يرضوا بهم وبمبارزتهم، لأنهم ليسوا أكفاء لأبطال قريش، وقالوا لهم: ما لنا بكم من حاجة.

قالت صادقة:

ـ عفواً يا جدّي العزيز.. من هم هؤلاء المبارزون المشركون؟

ـ عفواً يا ابنتي، نسيتُ أن أذكرهم لكم.. كانوا عتبة وشيبة ابنَيْ ربيعة، والوليد بن عتبة.. ونادَوْا:

ـ يا محمد.. أخرجْ إلينا أكْفاءنا من قومنا.

فقال رسول الله ﷺ:

قم يا عبيدةُ بنَ الحارث. قم يا حمزة. قم يا عليّ.

فبرزْنا إليهم من الصف، وتقدّمْنا نحوهم، فقالوا: من أنتم؟ فذكرْنا لهم أسماءنا. فقالوا لنا: نعم. أكْفاء كرام..

وبارز عبيدةُ ــ وكان أكبر منّا سنّاً ــ عتبةَ بن ربيعة.

وبارز عليٌّ الوليدَ بن عتبة.

وبارزتُ شيبةَ بنَ ربيعة، فلم أمهله أن قتلتُه، وأمّا عليٌّ فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة ضربتين بينهما، فجرح كلٌّ منهما صاحبه، فكررنا أنا وعليّ على عتبة بأسيافنا فقتلناه، وعُدْنَا بعبيدة إلى معسكر المسلمين، والمسلمون يهلّلون ويكبّرون.

فهتفنا أنا وصادقة: الله أكبر.. الله أكبر.

ــ فاستشاط المشركون غيظاً منا، فأمطرونا بسهامهم، فتزاحَفْنا، فأمَرنا الرسول بكسر هجماتهم، ونحن في مواقعنا، فإن هاجمونا نضحْناهم بالنَّبْل، إلى أن يأذن لنا بغير ذلك.

واشتدَّ القتال، وحميت المعركة، واستبسل المسلمون، فأنزلوا بالمشركين هزيمة منكرة، وقُتل أبو جهل، وقُتل العديد من صناديدهم..

ــ كنتَ تقاتل بسيفين يا سيِّدي؟

ــ أجل، ولو استطعت أن أقاتل بعشرة أسياف ما قصّرت.

ــ كم قتلتم من المشركين يا سيِّدي؟

ــ سبعين، وأسرنا سبعين، وجرحنا أكثر من هذا العدد، وفرّ الآخرون من المعركة.

ــ وكم كان عدد شهدائنا؟

ــ أربعة عشر شهيداً.

وقالت صادقة:

ـ وكنتَ يا جدّي، الفارس المُعْلَمَ بريشةِ نَعَام تضعُها في صدرك؟

ـ نعم.. وقد سأل أحد الأسرى من المشركين، عبدَ الله بن مسعود:

ـ من ذلك الرجل منكم، المعلم بريشة نعام في صدره؟

فأجابه ابنُ مسعود: ذاك حمزة بن عبد المطلب.

فقال الأسير: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

وقلت أنا:

ـ سلمتَ وسلمتْ يمينك يا سيدي. فقال:

ـ أرجو أن أكون قد أرضيتُ الله ورسوله والمسلمين المؤمنين يوم بدر، فقد قتلتُ في هذا اليوم، واحداً وثلاثين مشركاً، بعون الله.

فقالت صادقة:

ـ هذا لا شكّ فيه، وإلاَّ، ما قال الرسول القائد عليه صلوات الله:

«جاء جبريل فأخبرني أنّ حمزة بن عبد المطلب، مكتوب في أهل السماوات السبع: أسد الله وأسد رسوله».

وقلتُ أنا:

ـ لقد أرضَيْتَ وشَفَيْتَ ووَفَيْتَ والحمد لله والشكر، وكان

الناس يقاتلون بسيف، وكنت تقاتل بسيفين، فاستحققتَ بهذا لقب أسد الله وأسد رسوله.

وسألت صادقة:

ــ متى كانت غزوة بدر يا جدّي العظيم؟

ــ في السابعَ عشرَ من رمضان، في السنة الهجرية الثانية.

وقلت أنا:

ــ وبعدها يا سيدي؟ ماذا بعد بدر؟

قال أسد الله حمزة:

ــ بعد بدر، نقض يهود بني قينقاع العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله، فغزاهم الرسول، وحاصرهم خمس عشرة ليلة، فنزلوا على حكمه، فأجلاهم عن المدينة إلى أذرعات، جنوبيّ بلاد الشام.

فاستفسرتُ عن دوره في هذه الغزوة، فقال لي:

ــ كنت أحمل لواء رسول الله ﷺ، وكان لواء أبيض.

فقلت معلّقاً:

ــ ولا يحمل اللواءَ إلاَّ البطل الصنديد والفارس المغوار الذي يدفع حياته، ولا يسمح بسقوط لواء الرسول القائد على الأرض.

وقالت أختي صادقة:

ــ ومسك الختام، نرجو أن يكون في الحديث عن دورك يا سيِّدي في غزوة بدر.

فابتسم أسد الله حمزة، وقال:

ــ ظننتكم تحبّون الحديث عن غزوة أحد، ليكون حادث استشهادي مسك الختام!.

ــ وهو كذلك يا سيّدي.. أردت أن أقول: غزوة أحد، فسبقتْ بدرٌ أحُداً.

فقلت:

ــ الحقيقة، أنا أتهيّب من ذكر أحُد، ويصعبُ عليّ سماعها.

ــ لماذا؟

ــ لأنَّ في غزوة أحد مواجع ومواجع، من الرماة الذين خالفوا أمر الرسول القائد، ونزلوا من مواقعهم في الجبل، من أجل الغنائم.

وقالت صادقة:

ــ وما كنّا نظنُّ واحداً من المجاهدين، يقاتل في سبيل الدنيا، من أجل منصب أو مغنم.

ظهر التأثر على أسد الله حمزة، وقال في حزن:

ــ كانوا خمسين رامياً، وكان أميرهم عبد الله بن جبير.. لقد أوصاهم رسول الله ﷺ، وشدّد في الوصيّة.. قال لهم:

«انضحوا الخيلَ عنّا بالنَّبْل، ولا يأتونا من خلفنا.. إن كانت الدائرة لنا أو علينا، فالزموا أماكنكم، لا نؤتيَنَّ من قِبَلكم.. إن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا».

فصرخت:

ـ الله أكبر.. ما بعد هذه الوصية من وصية، وما بعد هذا الوضوح من وضوح.

وقال حمزة:

ـ واطمأنّ رسولُ الله ﷺ إلى أنَّ الرماة سوف يحمون ظهورنا، كما يحمون مؤخرة الجيش، فأقبل، عليه السلام، يتعهَّدُ مقدّمته، وأمرنا ألاّ نباشر القتال إلاَّ بإذنه.

قالت صادقة:

ـ عفواً يا جدّي، فقد استعجلنا في هذه الغزوة، وكأنك تريد أن تنهيها بسرعة.

قال في حزن:

ـ هذا لأنكم لا تريدون سماع هذه الغزوة، مع أنَّ فيها من الدروس ما يجنّبكم من الوقوع فيما وقعْنا فيه، على الرغم من الجراحات والمآسي التي كانت فيها..

قالت صادقة:

ـ نريدها بشيء من التفصيل.. منذ البداية.

ـ كما تحبّون..

صعَّدَ أسد الله حمزة بعض الحسرات، نفَّسَ فيها عن نفسه، ثم قال:

ـ كانت غزوة أُحُد يوم السبت، لسبع ليالٍ خَلَوْن من شوّال، على رأس اثنين وثلاثين شهراً من هجرة الرسول ﷺ.

ـ يعني.. في السنة الهجرية الثالثة.

ـ وقد استقبل النبيُّ ﷺ المدينة، وجعل جبل أُحُد خلف ظهره، وجعل وراءه الرماة الخمسين، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير.. وأعطى اللواءَ مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ، وجعل الزُّبَيْرَ على الخيل، ومعه المقداد. وخرجتُ بالجيش بين يديه.

ونشب القتال، وكان لي دورٌ في القتال أعتزُّ به، كما كان لأبي دجانة دورٌ عظيم لا يُنكَر، فكانت هزيمة المشركين، وهربت نساؤهم مصعِّدات في الجبل، ودخل المسلمون عسكرهم يغنمون.

ـ آه من الدنيا وزخارفها..

ـ عفواً سيِّدي.. أريد أن أخفِّف من وقع ما سأسمع على نفسي بين اللحظة واللحظة، فلا تؤاخذني إنْ أكثرتُ الأسئلة.

ـ تفضلْ يا بني، وأنا أراعي شعوركم النبيل هذا.

ـ كم كان عدد المسلمين؟

ـ عندما خرجنا من المدينة، كنا ألف رجل، حتى إذا نزلنا بأحد انسحب زعيم المنافقين: عبد الله بن أبي بن سلول،

ـ لعنه الله.

ـ بمن معه من المنافقين، وكانوا ثلث الجيش، حسب خطة مدَّبرة مع اليهود.

فصاحت صادقة:

ـ يا لطيف.. انسحب الخائن بثلث الجيش؟ وباتفاق مع اليهود؟

ـ وكان المشركون ثلاثة آلاف.. ولكن.. عندما تلاقينا بسيوفنا، علوناهم بها.. كنّا في أعلى صور الشجاعة والإيمان، ولهذا أعطانا المشركون ظهورهم. وعندما رأى الرماة هزيمة المشركين، نسي أكثرهم وصيّة رسول الله ﷺ.

ـ وتذكّروا الدنيا ومغانمها..

ـ فتركوا أماكنهم من الجبل، ولم يُصْغُوا لصيحات قائدهم عبد الله بن جبير الذي كان يأمرهم بأن يثبتوا في مواقعهم، حسب وصية الرسول الكريم عليه السلام.

واهتبل فرسان المشركين هذه الفرصة السانحة، وكانوا بقيادة خالد بن الوليد، فانقضّوا علينا من خلفنا، وقاتلهم من بقي من الرماة حتى استشهدوا، رحمهم الله، وتمكّنت حربة وحشيٍّ مني، فقتلتني، فأعاد المشركون الكرّة على المسلمين.

ـ لا حول ولا قوة إلاّ بالله.. معصية أوامر الرسول القائد، والإقبال على الغنائم، كانا سبب هزيمة المسلمين.

ـ ولولا ثبات رسول الله ﷺ ومن معه، لكانت الكارثة. فقد ثبت النبيُّ ثبات أحد، وقاتل دونه أبطال مغاوير، افتدوه بأرواحهم، وعادت فلول المسلمين تقاتل من جديد، وتعب المشركون، ويئسوا من إنزال الهزيمة بالمسلمين، فانسحبوا من المعركة.

سألت صادقة:

ـ هل كنتَ يا سيِّدي ممن رأوا الخروج من المدينة لقتال المشركين، أم كنت تفضّل قتالهم في المدينة، كما كان رأي الرسول القائد؟

ـ بل كان رأيـي من رأي الشباب.. أن نخرج لملاقاتهم، فسيوفنا عطشى لدمائهم.. ثمّ إن الذين لم يحضروا غزوة بدر من الشبان، أرادوا خوض معركة جديدة كمعركة بدر، خارج المدينة.. كانوا متحمّسين للقتال، وكذلك كنت..

ـ لأمرٍ يريده الله، وكان أمر الله مفعولاً.

قالت صادقة:

ـ وحزن الرسول القائد عليك حزناً شديداً، كما حزن على سائر شهداء أُحُد.. لقد خرج رسول الله ﷺ يفتّش عنك، فوجدك ببطن الوادي، وقد مثّلوا بك، فازدادت أحزانه، وقال:

«لن أُصابَ بمثلك أبداً، ما وقفتُ موقفاً قطُّ أغيظَ إليّ من هذا». ثم كفّنوك في بُرْدَةٍ، وكانوا إذا غطّوا رأسك، خرجت رجلاك، وإذا غطَّوْا رجليك خرج رأسك، فأمر النبيّ بأن يغطُّوا رأسك، ويضعوا على رجليك الإِذْخِر.

ثم قال عليه الصلاة والسلام يرثيك:

«رحمة الله عليك؛ فإنّك كنتَ فَعُولاً للخيرات، وَصُولاً للرَّحم. ولولا حزنٌ من بعدك عليك، لسرَّني أن أدعك حتى تُحشَرَ من أفواهٍ شتى».

واختنقت صادقة بعبراتها، فتابعتُ حديثها قائلاً:

ـ وقال الرسول القائد، وهو يرى نساء الأنصار يبكين شهداءهن:

«ولكنَّ حمزة لا بواكيَ له».

فجاء سعد بن معاذ بنساء الأنصار، فوقفن على باب الرسول يردّدْن:

بكتْ عيني وحُقَّ لها بُكاها ... وما يُغْني البكاءُ ولا العويلُ
على أسد الإله غداة قالوا: ... أحمزة ذاكمو الرجلُ القتيلُ؟
أصيب المسلمون به جميعاً ... هناك وقد أصيب به الرسولُ

فكان هذا التصرفُ الودود الحزين من الأنصار، عزاءً لرسول الله في مصابه بك يا سيِّدي، فخرج عليه السلام إليهنّ، وقال لهنّ:

«ارجعْنَ، رحمكنَّ الله، لقد واسيتُنَّ معي.. رحم الله الأنصار، فإنَّ المواساة فيهم، كما علمتُ، قديمة».

قال الفتى صادق أمين:

وعندما عدتُ من سَبَحات خيالي، امتدَّتْ يدي إلى منديلي، ومسحتُ دمعاتٍ حرَّى كانت تنسرب من عينيّ، وتحرق لي خدّيّ.. فقلت: رحم الله أسد الله وأسد رسوله حمزة، وعفا الله عن الرماة الذين تسبَّبوا فيما حصل، لأمر يريده الله، وأبعدَنا عن الدنيا وحبّها وحبِّ زُخْرُفها، ورجوتُ الله الكريم أن يرزق هذه الأمة قائداً فذّاً، وبطلاً عظيماً كحمزة رضي الله عنه وأرضاه.

● ● ●

سلسلة

من نجوم الإسلام

صدر منها:

١ ــ محمد بن مسلمة
٢ ــ عبد الله بن رواحة
٣ ــ سعد بن أبي وقاص
٤ ــ حمزة بن عبد المطلب
٥ ــ مصعب بن عمير
٦ ــ جعفر بن أبي طالب

تحت الطبع:

٧ ــ الشيخ عبد الرحمن الكواكبي
٨ ــ أبو عبيدة بن الجراح
٩ ــ عبد الرحمٰن بن عوف
١٠ ــ الزبير بن العوام
١١ ــ طلحة بن عبيد الله
١٢ ــ عمرو بن العاص
١٣ ــ الطفيل بن عمرو الدَّوْسيّ

* * *